الباب الأول

العمل

- الانتاج .
- التنمية .
- الأجور .

العمـــــــل

● **تعريف :**

أسلفنا أن العمل هو الركيزة الأولى لنظرية التوزيع فى الاسلام والأساس الأهم لوجود الثروة أو الناتج القومى المستهدف بالتوزيع .

والثروة — من وجهة النظر الاسلامية — مهمة يجب التوجيه فيها .. فلا يترك الأمر فوضى أو « اشباع رغبات » كما يزعمون .

والانسان هو المسئول عن هذا التوجيه بحكم مسئولية الخلافة التى عهد بها الله اليه : **« واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة »**[1] .

وبحكم المهمة التى أوكلها الله اليه فى قوله تعالى : **« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »**[2] .

فالمطلوب من الانسان هو اعمار هذه الأرض لصالح البشر وليس « اشباع رغبات » .. لأن « الشهوة ليست بصيرة ولا ملكة تمييز وادراك ، انما هى امتداد — غير طبيعى أو ضرورى — للغرائز فى صورة رغبات جامحة تتجاوز الحد الضرورى لمطالب الانسان الى ما لا ضرورة له ولا حد له من لذات الحس وغرور المظاهر وأهواء العرض الأدنى، فهى خروج على طبيعة البدن وتطلع أو تعلق بوهم يبدو ولا حقيقة له اذا وضع تحت أشعة الفكر ... فهى والعقل نقيضان : لا رشد مع الشهوة بتة .. ولا شهوة مع الرشد .. والثمرة الطبيعية لذلك أنه اذا كانت الهيمنة للرشد كان الانسان وما يملك من ثروات وطاقات فى عصمة الحكمة .. واذا كانت الهيمنة للشهوة كان الانسان وما يملك فى ولاية أعاصير أهوائه ونزواته المخربة المهلكة .. »[3] .

فالاسلام يريد تحرير الضمير الانسانى من عبادة غير الله فلا يذل الا له ولا يخضع لعرض أدنى أو هوى باطل .. يقول الرسول ﷺ :

---

(١) البقـــرة : ٣٠ . (٢) هـــود : ٦١ .

(٣) الثروة فى ظل الاسلام ، للبهى الخولى ، ص ١٢ .

« تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة .. تعس[٤] وانتكس »[٥] .

وعن هذه العبادة الباطلة يقول تعالى : « **أفرأيت من اتخذ الهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله ، أفلا تذكرون** »[٦] .

ان هذا الانسان الحر هو الجدير بخلافة الله فى الأرض وهو الذى سيدير ثروات الله التى بثها فى ملكوته لصالح البشر .

واذا قال تعالى : « **وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه** »[٧] فانما أراد بالتسخير أن توجه لتأييد سيادة أحكامه فى الأرض لا الى سيادة أحكام الأثرة والهوى .. وهو ما يوضحه قوله تعالى : « **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب ، ان الله قوى عزيز** »[٨] .

هنا الاشارة الجليلة الى وجوب العدل — الميزان — وتنفيذ قوانين الله — ليعلم الله من ينصره — التى بنيت على العدل المطلق وهى التى يجب أن تسود فى كل أمر من أمور هذا الكون ليتحقق على الأرض السلام والاسلام ..

فاذا آمنا بأن الله قد سخر لنا ما فى الأرض ووضع بين أيدينا وسائل اعمارها ومرافقها وكلها من خلق الله فقد وجب علينا لتحقق العدل المطلوب فى الثروة احترامها وعدم العبث بها والمحافظة عليها ووضع كل شىء فيما سخر له من رسالة الوجود فلا تكون أبدا محلا للعبث وقد قال رسول الله ﷺ : « من قتل عصفورا عبثا ، عج الى

---

(٤) شقى وهلك .
(٥) رواه البخارى .
(٦) الجاثية : ٢٣ .
(٧) الجاثية : ١٣ .
(٨) الحديد : ٢٥ .

الله يوم القيامـــة يقول : يارب ، أن فلانا قتلنى عبثـــا ولم يقتلنى منفعـــة »[٩] .

فالثروة التى خلقها الله وسخرها للانسان لابد أن تكون هى محل الاعمار — الانتاج — والتنمية بالعمل الرشيد الذى غايته الله .

ولذلك سينقسم الحديث فى هذا الباب الى :

١ — الانتـــاج .　　٢ — التنميـــة .

٣ — الأجـــور .

* * *

(٩) رواه النسائى وابن حبان فى صحيحه .

الفصل الأول

الانتاج

« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »[1] .

والاعمار كما أسلفنا هو الانتاج والتنمية بالعمل الرشيد لتتحقق الثروة التى هى محل التوزيع .

والاسلام لا يجعل التوزيع على أساس من أنواع الثروة الا بعد أن توجد الحاجات الضرورية لكل أفراد المجتمع من مأكل ومسكن وملبس ومشرب: **« أن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »**[2] .

أى حد الكفاية الذى تسئل عنه الدولة .

أما فى الحالات الاستثنائية التى لا تكفى فيها موارد المجتمع ـ كالمجاعات ـ فيوجب الاسلام وشرعه أن يتساوى الجميع فى « حد الكفاف » . فلا يحصل أحد أيا كان مركزه أو مكانته فى المجتمع على أكثر من ضروراته .

ويقول رجال الاقتصاد الغربى أن عوامل الانتاج أربعة :

١ ـ الطبيعة . ٢ ـ العمل .

٣ ـ رأس المال . ٤ ـ التنظيم .

وفى بعض النظريات الحديثة أدمج العمل مع التنظيم كما أدمج رأس المال مع الطبيعة .

وتوجد هذه العوامل فى الاقتصاد الاشتراكى انما يختلف شكلها فى الوجود وهى فى جملتها تنتقل الى الدولة ويصبح عنصر العمل

---

(١) هود : ٦١ . (٢) طه : ١١٨ ، ١١٩ .

وحده داخل هذا النظام هو محور التحليلات النظرية فى الاقتصاد الاشتراكى .

ويرى النظام الرأسمالى أن للأرض (الطبيعة) الريع ، وللعمل الأجر ، ورأس المال الربح أو (الفائدة) ، وأدخل التنظيم فى نصيب من الربح عند بعضهم .

أما النظام الاشتراكى فهو لا يعترف الا بعنصر العمل ويستبعد ما عداه ، وهو استبعاد فى الشكل فقط لأنه ينقل عناصر الانتاج الأخرى للدولة .

وكلا النظرتين تمثل مفهوما ماديا بحتا غايته مجرد الحصول على المنافع المادية ، لكن الاسلام ينظر الى الانتاج على أنه وسيلة لغاية أسمى هى اسعاد الفرد وتحقيق الرفاهية والتكافل فى المجتمع .

ولذلك رأى فقهاء المسلمين القدامى أن عوامل الانتاج هى العمل ورأس المال كالجصاص فى « المكاسبة » وابن قدامة فى « المغنى » (ج ٤) .

فعلى سبيل المثال فى عقد المضاربة وهو عقد شركة فيها شريك برأس المال وشريك بالعمل ، ويجمع الفقهاء على أن كلا منهما له نصيب فى الربح أحدهما نظير ماله والآخر نظير عمله على أن يقسم الربح بينهما وفق الشروط التى يتفقان عليها قبل بدء العمل بالشركة .

ويقول الجصاص فى باب « المكاسبة » :

« يقول تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »**[٣] .. فيه اباحة المكاسب واخبار أن فيها طيبا ، والمكاسبة وجهان : أحدهما ابدال الأموال وأرباحها والثانى ابدال المنافع ، وقد نص الله تعالى على اباحتها فى مواضع من كتابه نحو قوله تعالى : **« وأحل الله البيع »**[٤] وقوله : **« وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله »**[٥] وقوله : **« ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم »**[٦] يعنى من

---

(٣) البقرة : ٢٦٧ .
(٤) البقرة : ٢٧٥ .
(٥) المزمل : ٢٠ .
(٦) البقرة : ١٩٨ .

يتجر ويكرى ويحج ، وقال تعالى فى ابدال المناقع : « **فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن** »[٧] وقال تعالى فى قصة شعيب عليه السلام : « **انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج** »[٨] وقال ﷺ : « من استأجر أجيرا فليعطه أجره »[٩] .

لكن ذكر الكراء فى أقوال الجصاص والأجر فى القرآن الكريم والحديث الشريف يضيف عاملا آخر للانتاج هو الأجر للعمل بدون شركة .

والعمل فى الاسلام يرفع العامل الى مرتبة صاحب العمل كما فى قصة شعيب عليه السلام علاوة على ما لأجر العمل وقدره من تقديس فى الاسلام حتى أن الرسول ﷺ ينذر من يتهاون فى تقدير الأجر ودفعه بخصومة المولى عز وجل يوم القيامة فيقول عليه الصلاة والسلام فى الحديث القدسى : « قال الله تعالى : ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره »[١٠] مما جعل فقهاءنا القدامى يضعون العامل فى مرتبة الشريك فى الانتاج لأن كلا من صاحب العمل والعامل يسعون فى خدمة الاسلام وأفراد المجتمع ابتغاء وجه الله كما يقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه الا لله » .

ولا بأس لدينا اذن اذا قلنا ان عوامل الانتاج فى الاسلام هى :

١ — العمل .

٢ — رأس المال (النقدى والطبيعى — الأرض —) .

والعمل يأتى على رأس عوامل الانتاج فى الاسلام الذى يعتبره الأساس فى كل نشاط اقتصادى دون اغفال لعوامل الانتاج الأخرى « **وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما** »[١١] .

---

(٧) الطلاق : ٦ . (٨) القصص : ٢٧ .

(٩) من رسالة ماجستير لعز العرب فؤاد ، ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

(١٠) رواه البخارى وابن ماجه .

(١١) النساء : ٩٥ .

ولذلك يدعو الاسلام جميع عوامل الانتاج لأن تبذل أقصى ما فيها من امكانات لخدمة الأمة وتحقيق أهدافه الرامية الى رفاهية المجتمع ومن هنا كانت فرضية العمل فى الاسلام على كل قادر .

يقول تعالى : « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله** »(١٢) .

ويقول سبحانه وتعالى : « **هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور** »(١٣) .

تأمل هذا الأمر .. « **فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه** » .. هذا الأمر من المولى عز وجل .. امشوا لتأكلوا ... اعملوا لتنالوا الجزاء .. اشقوا لتجدوا لذة المكسب وتتذوقوا نعيم الراحة بعد الشقاء .

وان السنة النبوية الشريفة لتزيد الأمر وضوحا وتدعو بالحاح الى العمل واجادته فيقول الرسول ﷺ : « ان أشرف الكسب كسب الرجل من عمل يده »(١٤) .

وروى « أن قوما امتدحوا رجلا الى رسول الله ﷺ بالاجتهاد فى العبادة والغنى عن العمل ، وقالوا : صحبناه فى سفرنا فما رأينا بعدك يا رسول الله أعبد منه ، كان لا ينفتل من صلاة ولا يفطر من صيام ، فقال لهم : فمن كان يمونه ويقوم به ؟ قالوا : كلنا يا رسول الله ، فقال : كلكم أعبد منه »(١٥) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده ، وان نبى الله داوود كان يأكل من عمل يده »(١٦) .

بل ان الغنى الذى يملك كفايته لآخر العمر حتما عليه أن يعمل

---

(١٢) الجمعة : ١٠ .
(١٣) الملك : ١٥ .
(١٤) رواه الامام أحمد .
(١٥) رواه الشيخان .
(١٦) رواه البخارى .

لقوله عليه الصلاة والسلام : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المكفى الفارغ » — أى الذى لا يعمل [١٧] .

وكما يفرض الاسلام العمل على كل قادر ، كذلك يفرض على رأس المال أن يعمل لخدمة الأمة وينذر صاحبه بأشد العذاب ان هو تخلف بماله عن ذلك فيقول تعالى : **« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »**[١٨] .

كما يفرض الزكاة لتطهير هذا المال واخراجه للعمل والا أكلته الصدقة .. فتكون الزكاة أساسا للتكافل الاجتماعى أولا كما تكون حافزا للأموال للمشاركة فى النشاط الاقتصادى للمجتمع وفى تحقيق أهدافه .

ويضع الاسلام الضوابط لحركة المال فلا يسمح لقوة المال بالطغيان والاطمئنان بلا حساب : **« ان الانسان ليطغى . أن رآه استغنى »**[١٩] .

فيحرم الرشوة بأنواعها : **« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون »**[٢٠] .

ويحرم الاحتكار لأن الاحتكار جريمة ضد الانسانية تستوجب الطرد من رحمة الله لقول رسول الله ﷺ : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » ويقول : « من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء » .

كما يحرم الربا الذى يقطع الأواصر ويثير العداوة بين الناس ويضخم الثروات بغير عمل ولا يفيد الثروة العامة للمجتمع لأنه زيادة

---

(١٧) رواه الديلمى فى مسند الفردوس .
(١٨) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .
(١٩) العلق : ٦ ، ٧ .
(٢٠) البقرة : ١٨٨ .

فى الظاهر فقط: « **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربوا عند الله ، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** »(٢١) .

ويأتى النص القاطع بالتحريم فى سورة البقرة :

« **الذين يأكلون الربا لا يقومون الا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ، ذلك بأنهم قالوا انما البيع مثل الربا ، وأحل الله البيع وحرم الربا ، فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره الى الله ، ومن عاد فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات ، والله لا يحب كل كفار أثيم . ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا ان كنتم مؤمنين . فان لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله ، وان تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون** »(٢٢) .

وتحريم الربا حض على العمل وحرب على الكسل وتشجيع للمال أو دفع به الى ميادين الانتاج النظيف .

أما عامل الطبيعة — كالأرض — فله معاملة خاصة لأن حقوق الجماعة على الأرض وما فيها واضحة بينة والاستخلاف عليها بين .

يقول تعالى : « **ان الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين** »(٢٣) ويقول سبحانه : « **وانا لنحن نحيى ونميت ونحن الوارثون** »(٢٤) .

لذلك كان الحض على اعمارها وانذار المتكاسلين فى ذلك فيقول الرسول ﷺ : « من أحيا أرضا ميتة فهى له وليس لمحتجر حق بعد ثلاث سنين » أى يسقط حق الملكية عن هذه الأرض بعد ثلاث سنوات

---

(٢١) الروم : ٣٩ .
(٢٢) البقرة : ٢٧٥ — ٢٧٩
(٢٣) الأعراف : ١٢٨ .
(٢٤) الحجر : ٢٣ .

وهى المدة الكافية لواضع اليد ليثبت قدرته على احياء الأرض والا عادت الأرض الموات للجماعة •

وحكمة الشارع واضحة فى وجوب مداومة استثمار المال لأنه أصلا مال الله ومال الجماعة والنفع يعود على المالك والأمة معا •

ولذلك نزع عمر بن الخطاب رضى الله عنه الأرض التى أعطعها الرسول ﷺ لبلال المزنى حين لم يستطع استثمارها وترك له ما استطاع اصلاحه قائلا له : « ان الرسول لم يقطعك لتحتجر » •

ويشجع الاسلام هذا المعنى حتى ليقول الرسول ﷺ : « ما من مسلم يغرس أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة » (٢٥) •

بل ويذهب الى أبعد من ذلك فى تشجيع المسلم على الانتاج فيقول ﷺ : « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة(٢٦) فاستطاع أن يغرسها فليفعل » (٢٧) •

وهكذا نرى الاسلام دعوة للعمل الدؤوب والاعمار وتنمية الانتاج لتحقيق مجتمع الرفاهية الذى يسعى اليه كل نظام اقتصادى على الأرض •

* * *

---

(٢٥) رواه مسلم .

(٢٦) اى شتلة .

(٢٧) رواه البخارى .

الفصل الثانى

التنمية

لقد حدد الله لخليفته فى الأرض ــ الانسان ــ رسالته فى قوله تعالى : « **هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها** »[1] .

ولن يتم الاعمار المطلوب الا بالتنمية المتواصلة والسعى الدائب فى الأرض بحثا عن كنوزها ، وفى البحار بحثا عما فيها من رزق ، وفى جميع عناصر الكون الأخرى .

ولعل قول الرسول ﷺ : « اذا قامت الساعة وفى يد أحدكم فسيلة فاستطاع ألا تقوم الساعة حتى يغرسها فليغرسها فله بذلك أجر »[2] يبين مدى حرص الاسلام على التنمية الاقتصادية واعمار الأرض .

بل ان الرسول ليرى أن السعى فى سبيل الرزق وخدمة المجتمع من أفضل ضروب العبادة فهو عندما ذكر له مدحا أن رجلا كثير العبادة فسأل « من يقوم به ؟ قالوا : أخوه ، فقال : أخوه أعبد منه »[3] .

ورغم أن الجهاد فى سبيل الله يعد فى الذروة من الأعمال فى الاسلام والطاعات ، الا أن الاسلام ينظر الى السعى فى سبيل الرزق كصنو للجهاد فى سبيل الله حيث يقول المولى عز وجل : « **فاقرأوا ما تيسر من القرآن ، علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه** »[4] .

واذا تأملنا الآية الكريمة وقوله تعالى : « **فاقرأوا ما تيسر من القرآن** » ثم « **فاقرأوا ما تيسر منه** » وكأن المولى عز وجل ينبهنا الى أن هذا التخفيف هو لأهمية ما بين القولين من السعى فى طلب

---

(١) هود : ٦١ .
(٢) رواه البخارى .
(٣) الجامع الصغير للسيوطى
(٤) المزمل : ٢٠ .

الرزق والجهاد فى سبيل الله وهو ما يؤكده الرسول صلى الله عليه وسلم عندما أراد أحد الصحابة الخلوة والاعتكاف لذكر الله فقال له : « لا تفعل فان مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاتك فى بيتك ستين عاما »(٥) ..

و « فى سبيل الله » تشمل كل أوامره تعالى وما تتطلبه خلافة الانسان فى الأرض من السعى لاعمارها وهى بذلك تنمية شاملة تستهدف رقى الانسان ماديا وروحيا وفق أوامر الله الشاملة لجانبى الانسان المادى والروحى والتى تعتبر العمل والسعى فى سبيل الرزق من أهم العبادات يقوم به العبد ايمانا بالله حتى ليقول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشىء لا يحبه الا لله » .

ويحدثنا الدكتور محمد عبد المنعم عفر عن أبعاد التنمية فى الاسلام فيقول :

« يركز الاسلام على ثلاثة مبادىء هامة من المبادىء الحركية (الديناميكية) للحياة الاجتماعية هى :

(أ) الاستخدام الأمثل الموارد والبيئة الطبيعية التى وهبها الله للانسان .

(ب) الالتزام بأولويات تنمية الانتاج والتى تقوم على توفير الاحتياجات الضرورية لجميع أفراد المجتمع دون اسراف أو تقتير قبل توجيه الموارد لانتاج غيرها من السلع .

(ج) أن تنمية ثروة المجتمع وسيلة لتحقيق مستوى معيشة أفضل للمسلمين وعدالة التوزيع بين أفراده كحق أساسى للمجتمع على أفراده وفى هذا يرهب الله تعالى من عدم اعطاء المجتمع المسلم حقه فيقول جل وعلا :

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب

---

(٥) المستدرك الحاكم النيسابورى .

بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا . الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا » (٦) .

ويقول عز وجل أيضا :

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » (٧) .

ويختلف الاسلام فى ذلك عن غيره من النظم الأخرى فيما يختص بالمبادىء التى تحكم تنمية الانتاج وصلة هذا الانتاج بالتوزيع .

فعلى الرغم من أن النظم الاقتصادية على اختلافها تتفق جميعا على الاستفادة من الموارد بأقصى درجة ممكنة وتنمية الانتاج بالتالى الا أنها تتبع فى سبيل ذلك الأساليب التى تتفق مع مبادئها التى تنادى بها .

فالرأسمالية تهدف الى تنمية ثروة المجتمع دون النظر الى توزيع هذه الثروة ودورها فى تحقيق الرفاهية للمجتمع وتسلك فى سبيل ذلك كل السبل المؤدية الى تحقيق هذا الهدف دون اعتبار لآثارها الأخرى على المجتمع ، فلقد أدت الثورة الصناعية على سبيل المثال الى زيادة الانتاج ونمو الثروة الا أنها أضرت بالطبقة العاملة أضرارا كبيرة آنذاك ولم تضع الرأسمالية لهذا الضرر علاجا فى ذلك الوقت بواكب استخدام الآلة ويحمى المجتمع من أضرارها .

أما المجتمعية (الاشتراكية) فانها تؤكد على العلاقة بين أشكال

---

(٦) النساء : ٣٦ ، ٣٧ . (٧) البقرة : ١٧٧ .

الانتاج والتوزيع الا أنها ترى أن نظام التوزيع يتبع دائما شكل الانتاج ويتفق مع مصلحة الانتاج نفسه حتى ينمو الانتاج باطراد •

وفى الاسلام عكس ذلك ، فقواعد الاسلام التوزيعية ثابتة لا تتغير من عصر الى عصر ، ولا بين الأقاليم المختلفة ، والانتاج مجال لتطبيق قواعد التوزيع ، ولذا فهناك حدود وقواعد للانتاج تكيفه ضمانا لعدالة التوزيع واتساقه مع أهداف الاسلام وعلاج المشاكل التى تترتب على تغيير اساليب الانتاج •

لذلك يوجب الاسلام على المجتمع توفير الاحتياجات الضرورية لجميع أفراده دون اسراف أو تقتير قبل توجيه الموارد لانتاج غيرها من السلع وذلك بغض النظر عن وجود الطلب الفعال على هذه الضرورات من عدمه • كذلك فان انتاج السلع الأخرى يجب أن يكون فى اطار عدم الاسراف، والتقتير وأن يتجنب انتاج السلع الممنوع انتاجها والتى تضر بالمجتمع •

فالاسلام بذلك يعمل على أن تكون التنمية شاملة للأبعاد الروحية والخلقية والمادية للفرد والمجتمع بما يؤدى الى تحقيق أقصى رفاهية اقتصادية واجتماعية ممكنة والمنفعة القصوى للجنس البشرى •

وبذلك يقوم النسق الاسلامى للتنمية الاقتصادية على استمرارية عملية التنمية الاقتصادية والجمع بينها وبين التنمية الاجتماعية حتى يمكن توفير احتياجات المجتمع بما يناسب كل عصر ويتفق مع مفهوم الاسلام للتقدم الاقتصادى والعدالة الاجتماعية مقترنا بتقوى الله وشكره واقامة المجتمع الاسلامى المتماسك أفراده المتعاونون على البر والتقوى •

ومقياس التقدم الاقتصادى فى الاسلام هو وفرة الانتاج وسهولة الحصول عليه مرتبطا بالأمن والطمأنينة للفرد والمجتمع فى الداخل والخارج •

ويبين ذلك قول الله تعالى : « **لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ،**

جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور · فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل · ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى الا الكفور · وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير ، سيروا فيها ليالى وأياما آمنين · فقالوا ربنـــا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفســهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ، ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »(٨) ·

ففى مجتمع سبأ — وهو مجتمع زراعى — كانت نعمة الله عليه تتمثل فى الأرض الزراعية الخصبة الوفيرة الانتاج السهل المنـــال فلما لم يقوموا بشكرها أصيبت زروعهم وأشجارهم الرئيسية ولم يبق لهم الا قليل الانتاج من أنواع محـــدودة من المنتجات فلما استقروا على عدم شكر النعمة فقدوا كل شىء ·

وفى مجتمع آخر يقول الله تعالى : « **وضرب الله مثـــلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** »(٩) ·

ويتبين لنا من هذا المثال أن رغد العيش هو أيضا وفرة السلع وقلة تكاليف الحصول عليها مع الأمن والطمأنينة وأن من لا يشكر النعمـــة يحـــرم منها ·

وفى مثال ثالث يبين الله تعالى أن المشقة فى العمل وزيادة التكاليف وقلة الانتاج وصعوبة أو عدم توفية الاحتياجات المعيشية حالة سيئة لا يرضاها الاسلام للمجتمعات الاسلامية فيقول الله تعالى : « **والبلد الطيب يخرج نباته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** »(١٠) ·

ويوضح لنا القرآن الكريم حاجة المجتمعات الاسلامية الى قـــوة دفاعية تكفل لها الأمن والحماية من أعدائها ·· يقول تعالى : « **وأعدوا**

---

(٨) ســـبأ : ١٥ — ١٩ · (٩) النحـــل : ١١٢ ·
(١٠) الاعراف : ٥٨ ·

لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم »[١١] .

مما سبق يتضح أن المستوى المعيشى للمجتمعات الاسلامية اذن هو الذى تمثله مرحلة الانتاج الوفير الذى يتحقق بأقل تكاليف اجتماعية والذى يفى فى نفس الوقت باحتياجات أفراد المجتمع المعيشية وتحقيق الأمن له داخليا بالعدالة الاجتماعية والاسلام الاجتماعى ، وخارجيا بالقوة الدفاعية التى تكفل حماية المجتمع من أعدائه فاذا لم يتحقق ذلك للمجتمع كان عليه استمرار التنمية حتى يتم الوصول الى المستوى المطلوب .

ونظرا لتطور المجتمعات وتغير الاحتياجات الانسانية وتطورها باختلاف العصور فان التنمية تكون عملية مستمرة فى المجتمعات الاسلامية بصفة دائمة ولذا نجد عمر بن الخطاب رضى الله عنه — وهو فى مجتمع تجارى — يقول : « ما من موضع يأتينى الموت فيه أحب الى من موطن أتسوق فيه لأهلى أبيع وأشترى » .

كما يقول رسول الله ﷺ : « من طلب الدنيا حلالا وتعففا عن المسألة وسعيا على عياله وتعطفا على جاره لقى الله ووجهه كالقمر ليلة البدر » .

وبذلك يكون المستوى المعيشى المطلوب فى الاسلام قائما على الوفاء بالاحتياجات الاقتصادية والاجتماعية التى تناسب العصر الذى يعيش فيه المسلمون ولا تتعارض مع قواعد الاسلام وأصوله وتتلخص بصفة عامة فى المأكل والمشرب والملبس والمسكن وأدوات الاتصال والانتقال وتكوين الأسرة والتعليم ومواجهة الأحداث والكوارث والاصابات والوفاة وتحقيق الأمن والقوة الحربية وغيرها وأن يتحقق ذلك لعامة المجتمع وليس لطائفة أو طوائف معينة دون باقى المجتمع .

من ذلك نرى أن تقديرات الدخل ليست هى المقياس الوحيد أو

---

(١١) الانفال : ٦٠ .

الدقيق لرفاهية المجتمعات وتقدمها الاقتصادى حيث هناك مقاييس أخرى يجب أخذها فى الاعتبار ، كعدالة توزيعه ونوعية السلع والخدمات المتاحة لأفراد المجتمع ووضعية المستويات الدنيا من الدخول بالنسبة لتحقيق احتياجاتها المعيشية الأساسية الى جانب المقاييس المكملة الأخرى كالعمالة والانتاجية والمؤشرات الاجتماعية المختلفة كالمستويات التعليمية والصحية والغذائية والأمنية وغيرها مما يجب أخذه فى الاعتبار للوصول الى الحكم الصحيح على تقدم المجتمعات ورفاهيتها وهو ما يتضح جليا من مفهوم الاسلام للرفاهية ويقصر عنه المقياس السائد حاليا »[١٢] .

وهذا المفهوم الاسلامى هو خروج بالدخل من مأزق « المنفعة الحدية للنقود » التى تقول — فى الاقتصاد الرأسمالى — أن النقود تخضع لقانون المنفعة الحدية أى تناقص منفعتها عند حد معين من الغنى .

فاذا أعيد توزيع هذه النقود الزائدة أو الدخل الزائد — كما يطالب الاسلام — بحيث توضع فى أيد أقل دخلا لتحقق منها منفعة حدية أكبر ولتحقق للمجتمع — ككل — أكبر منفعة من الدخل القومى .

* * *

● **كيف تتحقق التنمية اسلاميا :**

١ — الادخـــار :

طالب الاسلام الأمة بالاعتدال فى النفقة فيقول تعالى فى صفة المؤمنين : « **والذين اذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قـــواما** »[١٣] .

والرسول ﷺ يدعو المسلمين للادخار حتى لا يتركوا أولادهم عالة

---

(١٢) مجلة الاقتصاد الاسلامى العدد (١٩) ، دبى ، ص ٤١ — ٤٧ .
(١٣) الفرقان : ٦٧ .

يتكففون الناس كما ينصح بأن يمسك الرجل فى بيته ما يكفى قوت سنة .

فهذه دعوة للادخار ... لكن الاسلام فى نفس الوقت يحرم كنز الأموال وتعطيلها .. فالمولى سبحانه وتعالى يقول منذرا هؤلاء الكانزين بأشد الوعيد : « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون** »(١٤) .

اذن الادخار فى الاسلام ليس هدفا فى ذاته بل هو الوسيلة للاستثمار ، أى العمل من أجل تنمية المجتمع .

ولتحقيق هذه الغاية فرض الاسلام الزكاة حتى تنتقل الأموال الى مجال التنمية ولا تتعطل وهو المفهوم الذى أوصى به عمر بن الخطاب رضى الله عنه كافل اليتيم حيث يقول : « اتجروا فى مال اليتيم حتى لا تأكله الصدقة » .

ويعزز هذا تحريم الربا حتى لا يفيد المال القاعد بل فرض الزكاة وتحريم الربا ومنع الاتجار فى النقود .. هذه جميعا تدفع الأموال دفعا الى مجالات الاستثمار فيتغلب المجتمع المسلم على أهم عقبات التنمية فى مجتمعات العالم الثالث — ونحن منه — وهى عقبة صعوبة التمويل وقلة الموارد النقدية اللازمة لبرامج التنمية .

* * *

٢ — ضوابط الأسعار :

يحبب الاسلام ارخاص الأسعار لتيسير على الناس لما فى ذلك من مرضاة الله والفوز بثوابه . . بل رفع الاسلام الجالب الى مرتبة المجاهد فى سبيل الله فيقول الرسول ﷺ : « أبشروا ، فان الجالب

---

(١٤) التوبة : ٣٤ ، ٣٥ .

الى سوقنا كالمجاهد فى سبيل الله ، وان المحتكر فى سوقنا كالملحد فى سبيل الله » .

وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه وهو أمير المؤمنين يدور فى سوق الكوفة ويقول:« معاشر التجار ، خذوا الحق تسلموا ولا تردوا قليل الربح فتحرموا كثيره » [١٥] والرسول ﷺ يقول : « من جلب طعاما فباعه بسعر يومه فكأنما تصدق به » .

ويقول الامام الغزالى رضى الله عنه : « لا ينبغى للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الاحسان وقد قال الله : « **وأحسن كما أحسن الله اليك**»[١٦].وقال عز وجل : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان** »[١٧] . وقال سبحانه : « **ان رحمة الله قريب من المحسنين**»[١٨] . ونعنى بالاحسان فعل ماينتفع به العامل وهو غيرواجب عليه ولكنه تفضل منه ، فان الواجب يدخل فى باب العدل وترك الظلم وقد ذكرناه وتنال رتبة الاحسان بواحد من ستة أمور : الأول فى المغابنة ، فينبغى ألا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به فى العادة فأما أصل المغابنة فمأذون فيه لأن البيع للربح ولا يمكن ذلك الا بغبن ما ولكن يراعى فيه التقريب فان بذل المشترى زيادة على الربح المعتاد اما لشدة رغبته أو لشدة حاجته فى الحال اليه فينبغى أن يمتنع عن قبوله فذلك من الاحسان ومهما لم يكن تلبيس لم يكن أخذ الزيادة ظلما وقد ذهب بعض العلماء الى أن الغبن بما يزيد على الثلث يوجب الخيار ولسنا نرى ذلك ولكن من الاحسان أن يحط ذلك الغبن ، وفى الحديث : « غبن المسترسل حرام »[١٩] .

---

(١٥) الاسلام والاقتصاد لأحمد الشرباصى ، ص ٩٣ .

(١٦) القصص : ٧٧ . (١٧) النحل : ٩٠ .

(١٨) الاعراف : ٥٦ .

(١٩) المسترسل : اى الذى امنك ، والحديث رواه الطبرانى والبيهقى — انظر احياء علوم الدين ج ٢ ص ٨١ .

والقناعة بالربح القليل لها أكبر الأثر فى سرعة دوران رأس المال التى تعنى المزيد من النشاط الاقتصادى والتوسع فى الأعمال لمواجهة هذا النشاط وبالتالى سعة السوق والمزيد من فتح أبواب الرزق والعمل للنـــاس •

وذلك عكس ارتفاع الأسعار الذى يؤدى الى كثير من الأضرار أولها التضييق على المسلمين لأن كثيرا من الناس سيحجمون عن شراء بعض ضروراتهم • ثم تضييق النشاط التجارى لما سيحدثه هذا الارتفاع من بطء فى دوران رأس المال وحركة التعامل فى السوق •

أما اذا بلغت الأسعار الى الحد المعروف « بالاستفزازى » فان ذلك سيكون مدعاة للحقد الذى يوغر صدور غير القادرين على الأغنياء ويزرع البغضاء بين الناس وقد يترتب عليه الفتن الكثيرة •• وكل ذلك من الاضرار وقد نهى الاسلام عنها بنص حديث رســـول الله ﷺ : المتفق عليه : « لا ضرر ولا ضرار » •

وأدى ذلك الى أن جمهور الفقهاء أباحوا التسعير لوضع ضوابط للأسعار رغم أن الرسول ﷺ لما طلب الناس منه فى موجة غلاء أن يسعر لهم أجاب : « ان الله تعالى هو الخالق القابض الباسط الرازق المسعر وانى لأرجو أن ألقى الله ولا يطلبنى أحد بمظلمة ظلمتها اياه فى دم ولا مال »(٢٠) •

ويقول الدكتور حسين حامد حسان فى ذلك أن الفتوى بجـــواز التسعير « انما تعد تطبيقا للنص نفسه الذى منع من التسعير ـــ حديث أنس رضى الله عنه موضوع البحث ـــ ذلك أن الفقهاء القائلين بجواز التسعير قد اجتهدوا فى استنباط مناط هذا النص وقد أداهم اجتهادهم الى أن مناط « المنع » من التسعير هو أنه ظلم للتجار طالما أن ارتفاع الأسعار فى عهد رسول الله ﷺ جاء نتيجة لقانون العرض والطلب وليس نتيجـــة جشع طائفة من التجـــار الذين يتحكمون فى الســـوق ويحتكرون أقوات المسلمين • وقد أشار الحديث الوارد بترك التســـعير

---

(٢٠) رواه أنس بن مالك •

الى هذا المعنى حيث يقول الرسول عليه السلام : « انى لأرجو أن ألقى الله وليس أحد منكم يطلبنى بمظلمة فى دم ولا مال » فهـذه العبارة تشير الى أن العلة فى ترك التسعير هى ترك الظلم وهـذا يعنى أن ارتفاع الأسعار كان دون تدخل من التجار فاذا ما تبين أن التجار هم الذين رفعوا الأسعار طمعا فى الربح الحرام فان هذا يعد ظلما يجب على ولى الأمر رفعه ، والتسعير هو الوسيلة لهذا الرفع »(٢١) .

والتسعير من وجهة نظر الاسلام هو الوسيلة لسد الذريعة الى الاحتكار ومكافحة الغلاء الذى يأتى نتيجة طبيعية للاحتكار بأنواعه .

وقد وضع الاسلام للتسعير القواعـد التى تمنع من الاجحاف بالبائع (فى عنصر نفقة الانتاج) أو الاجحاف بحق المشترى المعروف (بعنصر منفعة السلعة) .

والى جانب ذلك أقام الاسلام نظام الحسبة الذى بدأ فى عهـد رسول الله ﷺ وكان من أهم وظائف المحتسب :

١ ــ مراقبة أسعار الحاجيات فى الأسواق .

٢ ــ منع التجار من تلقى الركبان (القادمين من البادية أو الريف) حتى تقوم السوق بوظيفتها فى تحديد الأسعار ولا يقع الظلم على الريفى الذى لا يعرف اتجاه الأسعار .

٣ ــ مراقبة الموازين والمكاييل .

والهدف من كل هذه الضوابط هـو تحقيق الربح العادل للمنتج مع عدم الاجحاف بحق المشترى فى المنفعة المثلى لماله وتعاون الطرفين على تحقيق المستوى الكريم من المعيشة فى المجتمع .

* * *

٣ ــ تحـريم الاحتكار :

يقول أبو يوسف فى تعريف الاحتكار : « كل ما أضر بالناس حبسه فهو احتكار وان كان ذهبا أو ثيابا » .

---

(٢١) التجارة فى الاسلام ، للمؤلف ، ص ٤٠ .

والاحتكار فى نظر الحنفية هو « شراء طعام ونحوه وحبسه الى الغلاء أربعين يوما وعنـــد الشافعية شراء القوت فى وقت الغـــلاء ليمسكه ويبيعه بعد ذلك بأكثر من ثمنه للتضييق حينئذ وعند الحنابلة مثل ذلك بمعنى أن الاحتكار هو حبس الشىء انتظارا لغلائه وهو الأمر المرادف للامتناع عن البيع »(٢٢) .

بينما الرسول ﷺ يقول : « من دخل فى شىء من أسعار المسلمين ليغليه كان حقا على الله أن يقعده بعظم من النار يوم القيامة »(٢٣).

والأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ فى النهى عن الاحتكار واظهار بشاعة جرمه كثيرة ، نذكر منها :

« من احتكر طعاما أربعين يوما فقد برىء من الله وبرىء الله منـــه » .

« بئس العبد المحتكر ان ســـمع برخص ساءه وان سمع بغـــلاء فرح » .

« الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » .

« من احتكر حكرة يريد أن يغلى بها على المسلمين فهو خاطىء ».

والاسلام يحارب الاحتكار ويحرمه لما ما فيه من اهدار لحرية التجارة والزراعة والصناعة وتحكم فى الأسواق يستطيع معه المحتكر أن يفرض ما شاء من أسعار على الناس فيرهقهم ويضارهم فى معاشهم وكسبهم فوق أنه يسد أبواب الفرص أمام الآخرين ليعملوا ويرتزقوا كما يرتزق المحتكر ويقتل روح المنافسة التى تؤدى الى الاتقان والتفوق فى الانتاج وتدفع بعجلة التنمية الى الأمام .

ان بعض الدول تحتكر القمـــح وبعض السلع الغـــذائية وتلقى بالفائض فى البحر حتى لا تنخفض الأسعار بينما المـــلايين من البشر يموتون جوعا .. فأى جريمة هذه التى ترتكب فى حق الانسانية .. ؟

---

(٢٢) التسعير فى الاسلام للبشرى الشوربجى ، ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٢٣) رواه مسلم .

انها جريمة تستوجب الطرد من حظيرة الله كما يقول الرسول ﷺ : « الجالب مرزوق والمحتكر ملعون » •

لأن المحتكرين كما يقول جون آيز — أستاذ الاقتصاد فى الجامعة الأمريكية — « تائهون فى مطاردة المال الذى يجب أن يكون الوسيلة الى الحياة الطيبة لا غاية فى ذاته حتى نسوا الغاية وأمعنوا فى التعلق بالوسيلة •• وخطر الاحتكار على الاقتصاد العالمى أصبح فى غير حاجة الى مزيد من البيان وكلنا نعلم كيف تغلغل الاحتكار — الظاهر والخفى — فى أكثر ميادين الانتاج العالمى وكيف تحالف المحتكرون من أقطاب المال عبر حدودهم مع زملائهم فى بلاد أخرى ونجحوا فى تحديد الأسعار التى تؤتيهم الربح الفاحش وخلقوا الأزمات وتآمروا على بخس أثمان المواد الخام التى تنتجها البلاد النامية اضرارا بأكثر من ثلثى سكان الأرض ولا زالت جهود الأمم المتحدة — العناصر الطيبة فيها — تتوالى وتتعثر فى محاولة التخفيف من ويلات هذا الداء الوبيل »[٢٤] •

ان هذه الشركات المتعددة الجنسيات تفرض أسعارها على الناس فى كل مكان وتمنع قيام المنافسة بل وتقف حجر عثرة فى سبيل تحقيق التنمية فى الدول النامية لأنها تقتل المحاولات الصغيرة التى تقوم بها هذه الدول لانشاء صناعة صغيرة أو تطوير زراعة بكل وسيلة ولو بخسارة فى أسعار البيع لدولة ما حتى تقتل مشاريعها ثم تعود الى رفع الأسعار كما تشاء •

ان هذه الشركات وأمثالها ممن جعلوا المال غاية حياتهم انما يقطعون أواصر الرحمة ويحاربون كل المعانى الانسانية الجميلة التى جاء الاسلام لتحقيقها على الأرض من تعارف وتآخى وتراحم •• **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »**[٢٥] •

---

(٢٤) نظرية الاسلام الاقتصادية ، للمؤلف ، ص ٩١ ، ٩٢ .

(٢٥) الحجرات : ١٣ .

ولذلك فقد حرم الاسلام الاحتكار داخليا ودوليا .. فمتى نعود الى مقاييس الاسلام ونعلم أن المال ليس هو مقياس التكريم أبدا ! .

* * *

٤ ــ تشجيع الانتـــاج :

قدمنا فى فصل الانتاج ــ من هذا الباب ــ الكثير مما ورد فى القرآن والسنة من أقوال فى الحض على العمل والتشجيع على الانتاج.. ولو أدرك المسلمون حقا أن كل عمل يبتغى به المرء وجه الله سيجازى عليه فى العاجلة والآجلة لما توانى مسلم لحظة فى الاجتهاد والاتقان اتماما لرسالته على الأرض .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »(٢٦) .

كما يقول الرسول ﷺ حاضا على الانتاج : « ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو انسان أو بهيمة الا كان له به صدقة » (٢٧) .

ويزيد الاسلام الفرد اطمئنانا على عمله ونتيجته حتى يمضى فى العمل وفى الاجتهاد وفى تنمية ثروته ومـــوارده ــ التى هى ثروة المجتمع أيضا ــ فيعترف بالملكية الفردية ويصونها ويحميها ويضمن انتقالها الى ورثته .

فتنتقل الملكية ــ التى هى نتيجة العمل والاجتهاد ــ الى الذرية الذين هم امتداد لحياة المالك الأصلى على الأرض يشعر من خلالهم بتحقيق ذاته وبلمسة من لمسات خلود الذكر فى العالمين وجميعها من الفطر التى أودعها الله فى الانسان وحرص الاسلام على السمو بها وتوجيهها لصالح الانسانية جمعاء .

وكما احترم الاسلام الملكية قدس أجر العامل حتى ليقول الرسول

---

(٢٦) التـــوبة : ١٠٥ . (٢٧) رواه مسلم .

ﷺ فيما يرويه عن رب العزة : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ورجل باع حرا فأكل ثمنه ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » (٢٨) •

كما أوجب أن يكون الأجر بما يكفل للعامل مستوى المعيشة الكريمة من مأكل وملبس ومسكن •

وأوجب على الدولة كفالة العاجز عن العمل واليتيم الضعيف ••• كل ذلك ليمضى العامل فى عمله مخلصا متفانيا مجودا باذلا الجهد فى الاتقان والرقى بما يعمل حتى تتحقق أهداف التنمية •

* * *

٥ ــ التخطيط :

الاسلام دين العلم الذى يأمر الناس بالعلم والتعلم والتدبر فى كل شىء يصلح حياتهم ومعادهم ••

وقد وجهنا الاسلام الى ضرورة التخطيط ليس فى الاقتصاد فحسب بل فى كل مناحى الحياة •

وحسبنا هنا أن نذكر قول الله تعالى فى سورة يوسف وذلك فى تفسير رؤيا الملك الذى رأى : « **سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات** »(٢٩) •

فكان تأويل يوسف عليه السلام للرؤيا : « **قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله الا قليلا مما تأكلون • ثم يأتى من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون • ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون** »(٣٠) •

وهكذا رسم يوسف عليه السلام خطة ليست ثلاثية ولا خمسية بل لمدة خمسة عشر عاما فيها :

١ ــ ما يزرع فى السبعة الأولى •

---

(٢٨) رواه ابن ماجه •
(٢٩) يوسف : ٤٣ .
(٣٠) يوسف : ٤٧ ــ ٤٩ .

٢ ــ وكيفية حفظ الفائض حتى لا يتلف من الحشرات •

٣ ــ وكيفية توزيع هذا الفائض على سبع سنوات عجاف •

٤ ــ ورغم الوعد بعام شديد الرخاء الا أنه أوجب على الدولة أن تحتفظ باحتياطى غذائى : « **سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن الا قليلا مما تحصنون** » •

وقد نجح يوسف عليه السلام فى تنفيذ الخطة وانقاذ الأمة ــ ليس مصر فقط بل مصر وما حولها من البوادى وأولها فلسطين التى كان يعيش فيها أهله ــ •

فهل بعدت خطة يوسف عليه السلام عما ينادى به علماء الادارة بعد أربعة عشر قرنا من نزول القرآن والذين يقولون بأن « الادارة هى النشاط الذى يخطط وينظم ويراقب العمليات التى يؤديها الأفــراد والمواد والآلات ورأس المال • وهى توفير التوجيه والتنسيق والاشراف للعمل الانسانى لمساعدته على تحقيق الأهداف العامة » •

لقد بنى يوسف عليه السلام خطته على أسس من :

١ ــ كفاءة الانتاج فى سبع سنين •

٢ ــ الادخار لسنوات العسر •

٣ ــ تحديد الاستهلاك أو ترشيده بحيث لا يشكو الناس من قلة السلع أو ندرتها كما لا يعرضهم لخطورة قحط فى سبعة أعوام قادمة فكانت خطته عليه السلام قمة فى التنظيم والادارة •

ووضع يوسف عليه السلام على رأس هذا العمل أليس هو من قبيل وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ؟ وهو نفس ما حض عليه الاسلام ، فعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، ألا تستعملنى (أى تولينى عملا) فضرب بيده على منكبى وقال : « يا أبا ذر •• انك ضعيف وانها أمانة وانها يوم القيامة خزى وندامــة الا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها » •

وقد حذر الرسول ﷺ من مخالفة ذلك فى أكثر من حديث كقوله ﷺ : « من ولى من أمر المسلمين شيئا فأمر عليهم أحدا محاباة فعليه لعنة الله لا يقبل منه صرفا ولا عدلا حتى يدخله جهنم » (٣١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام عندما سأله أعرابى : متى تقوم الساعة ؟ فقال : « اذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة » . قال : وكيف اضاعتها ؟ قال : « اذا وسد الأمر الى غير أهله » .

وقد روى التاريخ الكثير عن تحطيط الرسول ﷺ فى كثير من الأمور لا سيما فى الحروب وكيف كان يجيش الجيوش ويشرف على تموين الجيش وموارد المياه أثناء المعركة وكيف يدبر خداع العدو ليأخذه على غرة فلا يعطيه فرصة كشف خططه .

لكن الأساس العملى أو الركيزة الكبرى فى كل عمل هى تقوى الله : « **واتقوا الله ، ويعلمكم الله ، والله بكل شىء عليم** »(٣٢) .

* * *

٦ ــ البركة :

البركة بعد خطير من أبعاد الاقتصاد الاسلامى لا تعرفه نظم الاقتصاد الوضعية ولا شك فى أنها لا تعترف به رغم خطورته ورغم آثاره التى لا تنكر والتى نلمسها فى مختلف مناحى الحياة .

وفى بحث للدكتور اسماعيل عبد الرحمن شلبى بكلية حقوق الزقازيق بمصر يوضح لنا أثر التقوى وهى سبب البركة فى التنمية الاقتصادية فيقول :

« فى مقدمة العهد الذى كتبه على بن أبى طالب كرم الله وجهه لوالى مصر الأشتر النخعى قال : « عليك بجباية خراجها وجهاد عدوها واستصلاح أهلها وعمارة بلادها » .

---

(٣١) رواه الحاكم . (٣٢) البقرة : ٢٨٢ .

وفى محـاولة لاستخلاص الدروس المستفادة من هذه العبـارة الجامعة المانعة يذكر الباحث أنهـا توضح الآتى :

أولا — جباية خراجها ، ويعتبر الخراج من موارد الدولة وينفق منـه على حاجات الرعية والمشروعات العامـة وتجهيز الجيش للدفاع وإقامة الأمن .

ثانيا — جهـاد عدوها ، أى تحقيق الأمن والأمان لمصر من غارات الأعداء عليها .

ثالثا — استصلاح أهلها . وهذا الاصلاح لا يتم الا بالقـدوة الحسنة من الحاكم نفسه ، وكذا نشر العدالة بينهم والحكم بما أنزل الله والرفع من شأنهم من ناحية التعليم والصحة والمرافق المختلفـة وزيادة دخل الفرد والدخل القومى .

رابعا — عمارة بلادها . وعمارة البلاد تعتبر من أهم ما ركز عليه الامام على فى خطاب تكليفه لحاكم مصر حيث ان عمارة البلاد هى اجـراء التنمية الاقتصـادية والاجتماعية حتى يتم الخير والرفاهيـة الاقتصادية لشعب مصر .

وفى كتاب آخر للامام على حدد فيه الهدف من العمارة أى التنمية الاقتصادية أرسله لوالى مصر أيضا محمد بن أبى بكر وطلب منـه قراءته على شعب مصر .. يقول :

« يا عبد الله ، ان المتقين حازوا عاجل الخير وآجله .. شاركوا أهل الدنيا فى دنياهم ولم يشاركهم أهل الدنيا آخرتهم . أباح لهم الله من الدنيا ما كفاهم به وأغناهم .. قال الله عز وجل : « **قـل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحيـاة الدنيا خالصة يوم القيامـة ، كذلك نفصل الآيات لقـوم يعلمون** »[٣٣] ... سكنوا الدنيا بأفضـل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أكلت ، وشاركوا أهل الدنيا فى دنياهم فأكلوا معهـم من طيبات ما يأكلون وشربوا من طيبات ما يشربون ولبسوا من أفضل ما يلبسون

---

(٣٣) الأعراف : ٣٢ .

وسكنوا من أفضل ما يسكنون وركبوا من أفضل ما يركبون • أصابوا لذة الدنيا مع أهل الدنيا وهم غدا جيران الله يتمنون عليه فيعطيهم ما يتمنون لا ترد لهم عدة • ولا ينتقص لهم نصيب من اللذة • فالى هذا يا عباد الله يشتاق كل من له عقل ويعمل له بتقوى الله ولا حول ولا قوة الا بالله • •

ان تقوى الله تعالى دواء قلوبكم وشفاء مرض أجسادكم وصلاح فساد صدوركم وطهور دنس أنفسكم •• من أخذ بالتقوى غربت عنه الشدائد بعد دنوها واحلولت له الأمور بعد مرارتها وانفرجت عنه الأمواج بعد تراكمها وأسهلت له الصعاب بعد انصبابها وهطلت عليه الكرامة بعد قحوطها وتحدبت عليه بعد نفورها ، وتفرجت عليه النعم بعد نضوبها ووبلت عليه البركة بعد ارذاذها » •

يقول الدكتور اسماعيل : « مما سبق تتضح لنا حقيقة أمر التنمية الاقتصادية حيث ذكر الامام على رضى الله عنه أهمية تقوى الله أولا وماذا يحدث بالنسبة للمتقين من خيرات كثيرة تنالهم نتيجة تقواهم حيث يحصلون على الحسنيين فى الدنيا والآخرة وبذلك ينعمون كثيرا بأنعم الدنيا وينعمون بجنة الخلد بجوار ربهم •• جنة عرضها السموات والأرض أعدت لهم •

اذن فبداية قيام تنمية اقتصادية للدولة الاسلامية لا بد لها من وجود شعب يتقى الله فى كل شىء حتى يعم عليهم الخير والبركات من السماء : « **والبلد الطيب يخرج نبـاته باذن ربه ، والذى خبث لا يخرج الا نكدا ، كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون** »(٣٤) •

« **ولو أن أهـل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون** »(٣٥) •

اذن فالرزق الوفير يتحقق نتيجة للايمان والتقوى حيث تتفتح عليهم بركات السماء والأرض •

---

(٣٤) الأعراف : ٥٨ •　　(٣٥) الأعراف : ٩٦ •

فالبلد الطيب لا يخرج الا الطيب من النبات الذى يعود بالخير والفائدة على أهله من البشر الذين يؤمنون بالله ورسله ويتقون الله ، لهذا يتحقق لهم الرفاء . أما البلد الخبيث فلا يخرج الا النبات الرديء الذى يكلف الكثير رغم رداءته والأرض الطيبة كالمؤمن بالله أما الأرض الخبيثة فهى مثل غير المؤمن الذى لا يجنى الا السيئات ولا يحصل على رزقه الا بالمشقة والعناء والنكد » .

ويستطرد الباحث فيقول : « كذلك حين قام سيدنا نوح عليه السلام بدعوة قومه الى وحدانية الله والاستغفار حتى يرضى الله عنهم واذا ما رضى عنهم فانه يعدهم بالخير الكثير : « **فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا . يرسل السماء عليكم مدرارا . ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا** »[٣٦] .

وهذا كله ترغيب لهؤلاء القوم كى يؤمنوا بالله العزيز الحميد ويحصلوا على مقابل ذلك وهو الخير الكثير ولكن هؤلاء القوم لم يؤمنوا فلم يتحقق لهم ما وعدهم الله .

ونجد فى القرآن الكريم من هذه المعانى ، ومنها قوله تعالى : « **وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون** » [٣٧] .

ويؤكد الباحث أن بداية قيام التنمية الاقتصادية فى المجتمع الاسلامى هى تقوى الله وعبادته وعدم معصيته ، والرسول ﷺ يقول : « ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل »[٣٨] .

والمولى سبحانه وتعالى يؤكد لنا فى قوله الكريم : « **ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة الى قوتكم ولا تتولوا مجرمين** »[٣٩] .. يؤكد لنا وعده بالخير والقوة والتمكين اذا التزمنا بأوامره واجتنبنا نواهيه ولم نلجأ الا اليه .

---

(٣٦) نوح : ١٠ — ١٢ . (٣٧) النحل : ١١٢ .
(٣٨) مجلة « النور » القاهرية الصادرة فى ١٩٨٣/٦/٨ .
(٣٩) هود : ٥٢ .

ولننزل الى أرض الواقع لنرى أن كل ما جاء بالقرآن سنة كونية لا تتخلف ، ووعد لابد أن يتحقق تماما كشروق الشمس ومغربها وتوالى الليل والنهار ...

لقد حكم عمر بن عبد العزيز — الراشد الخامس — بعد فترة من الظلم والاستبداد فرد المظالم ونشر ألوية العدل الذى هو أساس من أسس اقتصاد الاسلام فماذا كانت النتيجة .. ؟ رغم أن حكمه لم يمتد لأكثر من واحد وثلاثين شهرا .. ؟

لقد عم الخير أمة الاسلام وفاضت خزائن بيوت أموال المسلمين حتى أن والى عمر على افريقيـة — تونس والجزائر — يشـكو اليه اكتظاظ بيت مال الزكاة فيأمره أن يشترى عبيدا ويعتقها فيفعل لكن المال بعد أن أعتق كل العبيد ما زال كثيرا فيأمره أن يسدد الدين عن المدينين فيفعل حتى لا يبقى مدين واحد وما زال هناك مال كثير فيقول له الخليفـة : زوج الأبكار من الشـباب .. ليحصن المجتمـع من الانحراف .

وفى بلد زراعى كمصر كم رأينا حقلا سليما وسط حقول مصابة أو قليلة المحصول .. لأن صاحب الحقل المبروك يقوم باخراج زكاته فيطهر ماله وينميه .

« وبضدها تتميز الأشياء » .. فلننظر ونتدبر بعض ما يحدث على أرض الواقع لمن يخالف عن أمر الله ..

فنرى أن فرعون لما طغى وتجبر وكذب رسـل ربه وظلم بعض رعاياه الذين استخلف عليهم ليرعى فيهم أمر الله .. نرى — قبل أن يغرقه الله ومن معه فى قصاص ذاتى — المصائب تترى على قومه الذين استخفهم فأطاعوه :

« وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين. فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين »(٤٠) .

---

(٤٠) الأعراف : ١٣٢ ، ١٣٣ .

والطوفان كما نعرف فى مصر هو الفيضان العالى الذى يغرق الزرع ، والجراد يأكل الزرع فلا يبقى على شىء من اللون الأخضر فى الأرض .

ومنذ أعوام ثلاثة[٤١] ظهرت الفئران فى بعض القرى تلتهم المحاصيل بعد نضجها وقامت السلطات المسئولة فى هذه البلاد بعملية المقاومة الممكنة بالمبيدات الكيماوية وبالطرق العلمية لكن الفئران تختفى من مكان لتظهر فى مكان آخر أشد فتكا وضراوة .. لأن العلاج الحق هو ايتاء حق الله وتطهير المال بالزكاة .. أليس هذا هو ما صوره لنا القرآن الكريم فى قصة أصحاب الجنة [٤٢] :

« انا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة اذ أقسموا ليصرمنها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم . فتنادوا مصبحين . أن اغدوا على حرثكم أن كنتم صارمين . فانطلقوا وهم يتخافتون . أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين . وغدوا على حرد قادرين . فلما رأوها قالوا انا لضالون . بل نحن محرومون . قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا تسبحون . قالوا سبحان ربنا انا كنا ظالمين . فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون . قالوا ياويلنا انا كنا طاغين . عسى ربنا أن يبدلنا خيرا منها انا الى ربنا راغبون . كذلك العذاب ، ولعذاب الآخرة أكبر ، لو كانوا يعلمون»[٤٣].

انها سنة من سنن الكون ...

ولننظر حولنا اليوم (عام ١٩٨٥) لنرى كيف تمضى سنن الله التى ذكرها فى القرآن لا تتخلف .. يقول تعالى : **« واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »**[٤٤] .

واذا أخذنا « أمرنا » بمعنى أكثرنا ــ أحد معانيها ــ فأى كثرة

---

(٤١) فى عام ١٩٨٢ .
(٤٢) أى الحديقة .
(٤٣) القلم : ١٧ ــ ٣٣ .
(٤٤) الاسراء : ١٦ .

من المترفين كانت فى بيروت ؟ وأى فساد كان يسرى فى بيروت وملاهيها التى لا تحصى ..

فماذا كانت النتيجة .. ؟ تدمير شامل لبيروت .. وبأيدى أصحابها وأيدى الآخرين ..

ومثلها كانت آغادير على شاطىء المحيط الأطلسى فى المغرب فجاءها زلزال أغرقها .

ومثلهـا كانت بومبى فى ايطاليا فى التاريخ القـديم فدمرها البركان ...

انها سنن الله التى لا تتخلف ....

ويحدثنا البهى الخولى فى كتابه « الثروة فى ظل الاسلام » عن البركة فيقول :

« ولهذه الأرزاق المعنوية سننها الروحية ولكنا بصدد ما يتصل منها بالمرافق الاقتصادية وتنميتها ومضاعفة غلتها وهى البركة . . فقـد أخبرنا تعالى أنه بث سر البركة قبل أن يقـدر لنا الأقوات فى أرضنا وذلك قوله : **« قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين »**[٤٥] .

ونمر سراعا فلا نعرض لهذه البركة ببيـان ، ويكفى أنها تخالط أرزاقنا وأقواتنا فى الأرض — على كيف لا ندركه — فتهب لها الوفرة والنماء والبقاء من حيث لايحتسب العقل ، ولن يبلغ الاستغلال مداه فى الاسلام الا اذا استخلصنا سر النماء والبقاء مع ما نستخلص من ثروات المرافق والا فهو العيش الميت والرزق المحوق .. وما دمنا بصدد سنن الاسلام فى استغلال المرافق فلا بد من ذكر شىء عن سننه الروحية تحقيقا لمنهج الاسلام فى تناول الجانب الروحى لدى علاج كل أمر .

من هذه السنن :

(أ) ذكر الله فى الضمير والذهن كلما استقبلنا موردا من موارد

---

(٤٥) فصلت : ٩ ، ١٠ .

نعمه .. وذلك أمر طبيعى فان تلك المرافق انما هى خلقه سبحانه وأثر رحمته وفضله بين أيدينا ، ومن شأن النعم أنها آثار تحدث بفضل المنعم وتجدد ذكره وشكره تعالى فى الضمير .. وذلك من أهم أسباب رعاية النعم وتثميرها على ما يقول تعالى : « **لئن شكرتم لأزيدنكم** »(٤٦) وفى سورة الكهف ضرب الله مثلا رجلين لأحدهما جنتان — أى حديقتان — مثمرتان ، بهما من أنواع الفاكهة والزرع ، فلم ينظر فيهما أنهما خلق الله أرادهما له ، فأدركه احساس العلو : « **فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا** »(٤٧) فأخبره صاحبه أن ذلك فتنة وأرشده الى الحال التى ينبغى أن نستقبل بها نعم الله استدامة لها وتزكية ، فقال : « **ولولا اذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة الا بالله** » (٤٨) وقوله : « **ما شاء الله** » خبر لمبتدأ محذوف تقديره « هذا » أى هذا الذى أرى من الثمر والنعم هو ما شاء الله لى .. وكانت عاقبة اعراضه عن أحد قوانين رعاية النعم وتنميتها ما قال الله تعالى : « **وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهى خاوية على عروشها** »(٤٩) .

(ب) تقوى الله سبحانه والاستقامة على ما أنزل من أمر ونهى ... فذلك — على ما جاء به الوحى — مفتاح كل بركة وهو جل شأنه يقول : « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** » (٥٠) .

« **ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم** »(٥١) .

ومعنى تقوى الله ، أن نحذر أنواع الفساد والمعاصى التى تغضبه وتعرضنا لعقابه .

(ج) حركة القلب فى كسب مواهب الرزق الروحى .. فانه تعالى

---

(٤٦) ابراهيم : ٧ .
(٤٧) الكهف : ٣٤ .
(٤٨) الكهف : ٣٩ .
(٤٩) الكهف : ٤٢ .
(٥٠) الأعراف : ٩٦ .
(٥١) المائدة : ٦٦ .

قدر فى الأرض أقواتها • كما بث فيها سر البركة واذ جعل الله ذلك لنا فقد جهزنا بمواهب ادراكه فجعل عمل الجوارح سبيل كسب الرزق الحسى ، وجعل عمل القلب سبيل الرزق الروحى الذى هو حقيقة الوفرة والنمو (٥٢) ••• وقد قدمنا من عمل القلب أمرين : تقوى الله ، وذكره تعالى فى كل نعمة ، ولكن لابد له من حركة ايجابية نحو ذلك هى الارادة والرغبة فيما عند الله على ما يقول تعالى : « **والى ربك فارغب** »(٥٣) •

فاذا أقبلنا على مواردنا الاقتصادية لتحصيل غلتها المحسة ، فليكن لنا وعى بما هو وراءها ، ولتكن لنا همة تتجاوز المحدود الى الطموح الى الله أن يزكيه بما له من سر الوفرة والنماء •

وهذا بعض ما رسم لنا تعالى فى قوله : « **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله انا الى الله راغبون** »(٥٤) •• فمرد الأمر الى ما نبتغى لدى الله من سعة النعمة والرغبة اليه تعالى : « **انا الى الله راغبون** »(٥٥)•

نخلص مما تقدم الى :

أن التنمية فى الاسلام هى تنمية متوازنة تستهدف عدالة التوزيع قبل كل شىء ••

هى ليست تنمية رأسمالية تستهدف تنمية ثروة المجتمع دون نظر الى توزيع هذه الثروة •

وهى ليست تنمية اشتراكية يخضع فيها التوزيع لصيغة الانتاج وشكله وتستهدف سد حاجات الدولة وفق أطماع وأهواء القائمين على سياستها لا وفق احتياجات أفراد الأمة •

---

(٥٢) جاءت ألفاظ الوفرة والنمو والبقاء والعلو ونحوها فى كتب اللغة والتفسير شرحا لمعنى البركة ولا سيما فى تفسير قوله تعالى : « **تبارك الذى بيده الملك** » (الملك : ١) .

(٥٣) الشرح : ٨ . (٥٤) التوبة : ٥٩ .

(٥٥) الثروة فى ظل الاسلام ، للبهى الخولى ، ص ٤١ — ٤٤ .

انما هى تنمية اسلامية تستهدف، الانسان نفسه فلا تستعبده المادة كما فى النظام الرأسمالى ولا يستذله النظام كما فى التنمية الاشتراكية ...

انه انسان حر يعمر الدنيا ويؤدى أمانة الاستخلاف فى الأرض ويضمن له المجتمع حد الكفاية الا فى ظروف طارئة كمجاعة أو حرب .. ففى هذه الحالة يأمرنا الاسلام بأن يتواسى الجميع فى حد الكفاف ..

فعن رسول الله ﷺ أنه قال : « ان الأشعريين اذا أرملوا فى غزو أو قل فى أيديهم الزاد جمعوا ما معهم فى ثوب واحد ثم اقتسموا فهم منى وأنا منهم » .

* * *

الفصل الثالث

الأجـــور

قدمنا فى هذا الباب الحديث عن الانتاج والتنمية وهما أساس الحصول على الدخل القومى للدولة الذى هو موضوع التوزيع •

والأجور هى أهم أنواع التوزيع لأنها تمثل حصة العمـل فى الدخل القومى •

والعمل فى الاسلام هو أهم أعمدة الثروة ولذلك هو واجب على كل قادر من الأفـراد •• فاذا كان الله قد أودع كل نفس مواهبهـا وقدراتها فواجب الشخص الذى أتيحت له الفرصة لأن يجد العمـل الذى يتفق مع قدراته أن يعمل الى أقصى ما تسمح به هذه القدرات لأنه أصبح مسئولا أمام الله والمجتمع الذى يجب عليـه أن يوفر له البيئة المناسبة كى ينتج ويبذل طاقته من العطاء •• وذلك قوله تعالى : **« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ، وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون »**[1].

وهذا العمل بمسئوليته الدنيوية والأخروية هـو عمل فى الأرض ومعترك الواقع لا فى صومعة ولا فى سبحات الأوهام •

« هو الذى جعـل لكم الأرض ذلولا فامشـوا فى مناكبها وكلوا من رزقه »[2] •• ومناكب الأرض هى أنحاؤها العريضة وآفاقها الممتدة أفقا وراء أفق •• أى أنه يجعل الواقع كله ميدان العمـل ولا يرضى لعباده منه بالنشاط المحدود بالتخوم المحلية •

فالعمل هنا للعمران بمختلف أنواعه من زراعة وصناعة وتجارة كما أمر به الله : **« هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها »**[3] •

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) الملك : ١٥ .
(٣) هـود : ٦١ .

« وقال أئمة التفسير والفقه : ان الاستعمار هنا هو طلب العمارة والطلب من الله على سبيل الوجوب — أى الفرض — ويكون بالزراعة والأبنية والصناعة واستخراج المعادن »(٤) لأن الرسول ﷺ يقول : « التمسوا الرزق فى خبايا الأرض »(٥) .

ويثير الاسلام أقصى طاقات الفرد ومواهبه الى خفايا العمل ودقائقه بالاحسان والجودة فيريه أنه مسئول عن ذلك بالذرة لا بما فوقها : **« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره »**(٦) .

كما أوجب علينا شكر النعمة بتعهدها بالصيانة والرعاية ليستمر الانتاج وتتحقق التنمية .. ويضرب الله لنا المثل فى نتيجة الاهمال بقصة سبأ : **« لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور . فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل . ذلك جزيناهم بما كفروا ، وهل نجازى الا الكفور »**(٧) .

لقد أهملت الخزانات والسدود التى تنظم رى أراضيهم فلم تثبت للسيل فاكتسحها ودمر وأتلف ما وراءها .

« فالاسلام يفرض العمل على الانسان ولا يجعل من حقه أن يعمل أو لا يعمل ، كما هو الحال فى النظام الرأسمالى القائم على الحرية التامة للفرد . فالانسان الفقير فى ظل الرأسمالية مضطر للعمل حتى لا يموت جوعا . أما الانسان الغنى صاحب رأس المال فلا حاجة له بالعمل ولا يضطره أحد لذلك فعائد رأس المال سيأتيه وهو نائم .

والاسلام يرى أن العمل حق وواجب على الفرد ازاء المجتمع الذى يعيش فيه ... فلا وجود لعاطل أو كسول .

---

(٤) الثروة فى ظل الاسلام ، للبهى الخولى ، ص ٣٩ .
(٥) المقاصد عن هشام بن عروة .
(٦) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٧) سبأ : ١٥ — ١٧ .

والعامل المسلم مطالب بالعمل ليس لأنه سيموت جوعا وانما لأنه يؤدى واجبه نحو المجتمع ..

وفى المجتمع الاشتراكى ارادة المجتمع هى الفعالة والمؤثرة وتختفى بجوارها الارادة الفردية الشخصية .

وعلى العكس من ذلك فى النظام الاسلامى ، فللفرد ارادة ذاتية مؤثرة وموقف المجتمع أو الدولة من هذه الارادة هو توجيهها بالوسائل الأدبية وقد تصل الى الوسائل المادية اذا هدد المجتمع نتيجة قعود أبنائه عن العمل .

وفى ذلك يقول أساتذتنا من الأصوليين : « ان القيام بما يلزم المجتمع الاسلامى فرض كفاية على الجميع »(٨) .

بمعنى أن تسد كل ثغرة فى المجتمع فيوجد الكفاية من أصحاب كل مهنة وحرفة ، كالأطباء والزراعيين والكيمائيين وغيرهم كفرض كفاية ان قام به البعض سقط الاثم عن الآخرين وان لم يقم به أحد طوق الاثم الأمة وأولى الأمر منها خاصة ..

ان هذه الفريضة تجعلنا لا نحتاج الى نسول الخبراء من كل ملة وجنس بما يحملون الينا معهم من معتقدات وأعراف فاسدة .

والاسلام بذلك ينظر الى العمل نظرة اجتماعية على أنه ليس ملكا فرديا مطلقا ومنفصلا انفصالا تاما عن المجتمع ولذلك فهناك حقوق وواجبات متبادلة بين العامل والمجتمع الذى يعيش فيه .

بينما العلاقة بين العامل ومجتمعه فى ظل النظم الرأسمالية تخضع للحرية الفردية البحتة .. لذلك كانت العلاقة بين العمال وأصحاب الأعمال فى ظل النظم الرأسمالية هى علاقة مشاكسة وعداء فى أغلب الأحيان ، فالنقابات العمالية دائما تطالب بالمزيد من الأجور لا سيما كلما ارتفعت أسعار السلع وضرورات الحياة ، وأصحاب الأعمال يحاولون دائما ألا ترتفع أجور العمال عن « حد الكفاف » .

---

(٨) تمايز الاقتصاد الاسلامى عن الفكر المعاصر — رسالة ماجستير لعز العرب فؤاد ، ص ٣٣٥ ، ٣٣٦ .

والعمال فى رأى أصحاب نظرية الكفاف من الاقتصاديين لا يختلفون فى طبيعتهم عن الآلة التى تحتاج لمصاريف لادارتها واصلاحها واستبدالها بغيرها عندما تبلى فكذلك العامل يحتاج الى نفقات تقيم أوده وأسرته ليعيش عند حد الكفاف .. ولن يغير من هذه الحقيقة قول بعض الاقتصاديين المعاصرين بأن العامل « يبيع جهده » أو « خدمة العمل » ...

لذلك يرى بعض الاقتصاديين أن هذا الوضع بالنسبة للعمال أسوأ مما كان يكفله للعامل نظام الرق فيما مضى من القرون .

فالعامل الرقيق كان يضمن مأكله وملبسه ومسكنه وفى أمان من مخاطر البطالة التى تعرض العامل وأسرته فى كثير من دول العالم للجوع والعرى بل والهلاك .

وتأتى النظرية الاشتراكية لتقول ان قيمة أى سلعة تتحدد بكمية العمل التى أنفقت فى سبيل انتاجها بمعنى أن العمل هو العامل الأساسى فى الانتاج ويجب أن ينال العامل عائدا يتمثل فى زيادة أجره عن حد الكفاف ويمثل نصيبه الفعلى فى عملية الانتاج .

لكن التطبيق العملى فى ظل الاشتراكية لم يخرج بالعامل الى وضع أفضل مما هو فى ظل النظم الرأسمالية بل ظل كما هو آلة أو ترسا فى آلة ينال القليل من الأجر لأن الدولة تبحث وراء التراكمات الرأسمالية لتجديد المصانع أو اللحاق بالتطور العلمى السريع فى مجالات الانتاج فى العالم أو الصرف على الانفاق الحربى المتزايد .

بل شاهدنا فى بعض التجارب الاشتراكية كيف تفاوتت الدخول بشكل رهيب حتى بلغ أكبر مرتب فى الدولة خمسين ضعفا من أصغر مرتب والتهمت مصاريف الادارة وتكاليف البيروقراطية المغرقة معظم الأرباح المستهدفة بل وأساءت الى نوعية الانتاج نفسه وهكذا ظلت وجهة النظر المادية للعمال كسلعة خاضعة للعرض والطلب خاضعة فى أجورها لنفس العوامل الاقتصادية التى تؤثر على أسعار أى سلعة أخرى فى السوق فلم تتحقق العمالة الكاملة فى ظل النظام الرأسمالى

المعدل الذى نادى به الاقتصادى اللورد «كينز» ولا أظن أن من تكافؤ الفرص أن يترك الشاب الخريج من عامين الى ستة أعوام متعطلا فى انتظار فرصة العمل التى تتيحها له الدولة من خلال مكاتب العمل فى ظل بعض النظم الاشتراكية ، بل ان ذلك اهدار لحقه فى الحياة الكريمة التى فرض الاسلام على الدولة توفيرها لرعاياها كما أنه اهـدار لقوة العمل المعطلة ذاتها وذلك خسارة كبيرة على الدولة واقتصادها .

ورغم ما تحقق فى ظل النظم الرأسمالية من ثراء فاحش لرجال الأعمال على حساب فئة العمال الكادحين الذين عاشوا على الكفاف نجد من يقول : « ان النقابات العمالية قد اشتد ساعدها واستطاعت فى بعض البلاد الصناعية الكبرى أن ترفع من أجور العمال وتعمـل على تحسين أحوالهم .

ولكن الدولة فى هذه البلاد وجدت أن المفاوضات بين أصـحاب الأعمال ونقابات العمال تصل فى بعض الأحيان الى طريق مسدود وأن فى ذلك ضررا يلحق بالبلاد فبدأت تتدخل لفض المنازعات بين هؤلاء وهؤلاء حرصا على سلامة الأوضاع الاقتصادية والمالية .. » وبذلك نستطيع القول بأن دور تدخل الدولة جاء متأخرا ، بل جاء كمرحلة أخيرة للعلاج وليس كطريقة للوقاية (٩) .

والمشاهد أن تدخل الدولة فى أغلب الأحوال ليس لصالح العمال بقدر ما هو الى جانب رجال الأعمال .. وقد تقدم مصلحة رجال الأعمال فى بعض الأحيان على مصلحة الدولة نفسها لا سيما من وجهات النظر الايديولوجية .. ولعل ما فعلته حكومة المحافظين فى بريطانيا هذا العام (١٩٨٥) من اذلال لعمال المناجم وارغامهم على العودة لعملهم دون تحقيق مطالبهم بعد اضراب طويل قيل انه أطول اضراب شهدته البلاد .. ما زال ماثلا للأذهان ..

ان كل ذلك على « العكس مما جاء به الاسلام الذى جعل الحد الأدنى للدخول هو الكفاية وليس حد الكفاف .

---

(٩) من رسالة ماجستير ، لعز العرب فؤاد ، ص ٨٣ .

كما أن واجب الدولة أن تتدخل منذ اللحظة الأولى حرصا على كل فرد تحت ولايتها واستشعارا بمسئوليتها الجسيمة ازاء كل مواطن .

بل ان عمر بن الخطاب يذهب الى أبعد من ذلك فيقول مقالته المشهورة : « والله لو عثرت بغلة في الطريق بالعراق لكنت مسئولا عنها أمام الله ، لم لم أمهد لها الطريق » ؟ .

كما أن الاسلام يحرم الاحتكار ولايسمح بقيام مؤسسات احتكارية يديرها أفراد لمصلحتهم وانما تقوم الدولة بادارة الصناعات والمرافق الهامة حفاظا على المجتمع ومنعا من استغلاله .

فالعامل ينال أجره على أساس حد الكفاية كحد أدنى للمعيشة والسلع تقدم للمجتمع بسعر مناسب لا شبهة للاستغلال فيه » (١٠) .

والاسلام بذلك يشتمل على تنظيم أولى ومبدئى للأجر قبل أن يبدأ العرض الفعلى فى السوق وهذا التنظيم أو المبدأ هو أن يكون الأجر بالنسبة للعامل مقدرا بالكفاية وهو موقف مبدئى معلن للعمال وأصحاب الأعمال يسبق دور السوق وعلى أصحاب الأعمال أن يأخذوا فى اعتبارهم أن الأجر لن ينزل عن حد الكفاية المعتبرة شرعا بصرف النظر عن عوامل العرض والطلب فى سوق العمل .

وأجر العامل هو من أقدس الحقوق فى الاسلام حتى لينذر الرسول ﷺ من يظلم فيه بخصومة رب العزة يوم القيامة فيقول عليه السلام فيما يرويه عن رب العزة : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بى ثم غدر ، ورجل باع حرا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره »(١١) .

ومستوى هذا الأجر قد تحدد فى قصة موسى عليه السلام لما سقى لابنتى شعيب « **قالت احداهما يا أبت استأجره ، ان خير من استأجرت القوى الأمين . قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين**

---

(١٠) المرجع السابق ص ٢٨٤ .

(١١) رواه البخارى .

على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فان أتممت عشرا فمن عندك ، وما أريد أن أشق عليك ، ستجدنى ان شاء الله من الصالحين »(١٢) .

وروى أن النبى ﷺ عندما قرأها قال : « آجر نفسه والله على عفة فرجه وطعام بطنه » أى أنه آجر نفسه بطعامه وكسوته وسكنه ومهر ابنة صاحب الدار .. أى أنه عاش فى مستوى صاحب العمل نفسه .

لكن الاسلام يبدأ فى تنظيم الأمر بتقرير حق العمل لكل انسان ، فقد روى البخارى أن رجلا جاء الى النبى ﷺ يطلب منه صدقة فأمره النبى بالانتظار ثم دعا بقدوم ودعا بيد من خشب سواها بنفسه ووضعها فيها ثم دفعها للرجل وأمره أن يذهب الى مكان معين ليحتطب ليكسب قوته وقوت عياله وطلب اليه الرسول أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله .. وقد أفلح الرجل فى تحسين حاله .

والرسول ﷺ ما كان ينطق عن الهوى وكانت أعماله تشريعا لهذه الأمة وهديه هو ما أمرنا بالسير عليه فالله تعالى يقول : « **وما أرسلنا من رسول الا ليطاع بأذن الله** »(١٣) ... « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** »(١٤) .. فيكون فى هذه المسألة تشريع خطير للعمل يتفق مع مسئولية الفرد التى يقررها قول الرسول ﷺ : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته » .

ونخرج من هذه الحادثة بالمبادىء الآتية :

الأول : أن المتعطلين كانوا يرون لهم حقوقا على الدولة فيذهبون الى ولى الأمر باسم هذه الحقوق ليدبر لهم أمرهم بما يراه ، وكانوا يذهبون بملء الكرامة والعزة لأن صاحب الحق لا يكون ذليلا .. وما نظن أن طلاب الاصلاح يحلمون بخير من هذا .

الثانى : أن الدولة تقر المتعطلين على هذه الحقوق وتعترف لهم

---

(١٢) القصص : ٢٦ ، ٢٧ . (١٣) النساء : ٦٤ .
(١٤) الحشر : ٧ .

بها ولا تنكرها عليهم بدليل أن رسول الله ﷺ استمع الى شكاية الرجل ولم يزجره وأقره على حضوره اليه ولم يطرده •

وهذه انسانية سامية لا تنبع الا من معين الاسلام وما أحرى أن نتأسى بها •

الثالث : أن الدولة لا تكتفي فقط بالاعتراف بحقوق المتعطلين بل تدبر لهم العمل فورا ولا تتركهم للتسويف والمماطلة •• فقد رأينا الرسول عليه السلام لم يأمر الرجل بالانصراف الا بعد أن دبر له العمل والمكان الذى يعمل فيه وهذا أقصى ما تطمح اليه أنظار العمال فى العالم •

الرابع : اطمئنان الدولة على يسر العامل ورخائه • وقد رأينا الرسول عليه السلام لم يكتف بايجاد العمل للمتعطل بل طلب أن يعرف ما صارت اليه حاله ليطمئن عليه وهذا هو السمو الذى تفرد به الاسلام دين الله ونعمته الجامعة لكل خير وسعادة •

الخامس : وهذا المبدأ الخامس أشار اليه الامام الغزالى فى كتاب « الاحياء » اذ ندب ولى الأمر بعد كل هذا لأن يزود العامل بآلة العمل فللنجار آلة النجارين وللحداد آلة الحدادين وهكذا • لأن رسول الله ﷺ جهز الرجل بآلة العمل • اذ أحضر القدوم ووضع لها اليد ودفعها اليه • ولم نجد فيما نعلم شريعة نصت على مثل هذا • فاذا وجدت فهو نهاية ما يطمح اليه العمال من أنواع الرعاية والكرامة والخير •

وبعد أن يقر الاسلام حق العمل لكل انسان يحرص على تأكيد كرامة العمل لأن العامل وصاحب العمل طرفا عقد لا يعلو طرف منهما على الآخر حتى ليؤاكل الخادم سيده ، ويأمر الرسول ﷺ بأن نلبسه مما نلبس ونطعمه مما نأكل •

وقد قدمنا قول الرسول ﷺ عن قداسة أجر العامل حتى ليضع جريمة أكل عرق الأجير فى صف جريمة الغدر بالانسانية ومع خيانة العهد بعد الحلف بالله غدرا بذمة الخالق •

كما يقول عليه الصلاة والسلام : « أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه » (١٥) .

ويقول : « من استأجر أجيرا فليسم له أجره » (١٦) .

وفى هذين الحديثين يرعى الاسلام حاجة العامل النفسية والمادية .. فلا شك فى أن الوفاء بالأجر والتعجيل بهذا الوفاء يشعر العامل بأن عمله مقدر وبأن صاحب العمل يعنى به وبشئونه وبمكانته فى المجتمع .. كما أنه يقى العامل مذلة الحاجة لأن العامل غالبا ما يكون بحاجة الى أجره لسد حاجاته وحاجات عياله ، وتأخير أداء الأجر يؤذيه ويحرمه من ثمرة كده فى أنسب أوقاتها .. كما أن تسمية الأجر تطمئن نفس العامل وخاطره .

ويتعمق الاسلام بنظرته مشاكل الأجور ويتتبع العامل فى أدق مشاكله فلا يترك عمال التراحيل تحت رحمة المقاولين ومقدمى العمال يقتسمون معهم أرزاقهم لأن ذلك مخالف لأصل من أصول الاسلام ، وهو ألا كسب بلا جهد ولا مال بلا عمل ، فضلا على ما فيه من ظلم واجحاف .. ولقد قال ﷺ : « اياكم والقسامة ، قلنا : وما القسامة ؟ قال : الرجل يكون على طائفة من الناس فيأخذ من حظ هذا وحظ هذا » ...

بل ان الاسلام ذهب الى أبعد من هذا فى تقدير الأجر عندما قرر حق العامل فى أن تكون له أسرة وأن يكون له خادم .. فلقد روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من كان لنا عاملا فليكتسب زوجة ، فان لم يكن له خادم فليكتسب خادما ، فان لم يكن له مسكن فليتخذ مسكنا » .

وفى رواية ابن حنبل : « من ولى لنا عملا وليس له منزل فليتخذ منزلا أو ليست له زوجة فليتزوج أو ليس له خادم فليتخذ له خادما أو ليس له دابة فليتخذ دابة » (١٧) .

---

(١٥) رواه الشيخان .
(١٦) رواه الشيخان .
(١٧) رواه أحمد وابو داوود .

وهذه الرواية الأخيرة تحتم على صاحب العمل أن يكفل وسيلة المواصلات للعامل عنده لا للعمل فقط بل لقضاء حوائجه الأخرى لأن الدابة ستكون ملكا له أو يعطيه من الأجر ما يكفل له تغطيـــة نفقات انتقاله وهو ما يسمى بلغة العصر « بدل انتقال » •

بل ويزيد الرسول ﷺ فى حديث آخر : « اخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم وليلبسه مما يلبس ولا يكلفـــه من العمل مالا يطيق •• فاذا كلفتموهم فأعينوهم » •

فاذا تأملنا الجزء الأخير من الحديث : « ولا يكلفه من العمل ما لا يطيق ، فاذا كلفتموهم فأعينوهم » •• نجد أنه يضع مبدأ هاما فى العمل •• هو ألا يكون العمل فوق طاقة العامل •• أى لا يستنزف قوته وحيويته لأن هذا الذى يستنزف دماء العامل مستغلا حاجته الى القوت انما هو لص بل قاتل سفاك يقضى على حياة العامل فى بطء ويستنزف دماءه قطرة قطرة ••

لكن الاسلام لا يرضى بهذا الاستغلال فيأمر أتباعه بعدم ارهاق العامل أو بعبارة العصر « بتحديد ساعات العمل » •• « فاذا كلفتموهم فأعينوهم » فى حالة زيادة العمل عن الحد المعقول زيادة مؤقتة كانت الاعانة المطلوبة بالمشاركة فى العمل ولا شك فى أن الاسلام بذلك يريد أن يذيق صاحب العمل بعض ما يلقاه العامل من مشقة ليتقى الله ويعطى العامل حقه من الراحة ونصيبه العادل من الحياة •

وقد تكون الاعانة « بالأجر الاضافى » •• وهو أيضا يتيح للعامل فرصة أكبر فى متع الحياة وضروراتها •

وهكذا نجد أن الاسلام ينظم حوافز الانتاج فى حقل العمـــل بما يوفره للعامل من راحة نفسية وبدنية تتمثل فى الأجر الذى يكفل له حاجياته والعمل الذى لا يرهقه ويسهل أسباب السعادة الدنيوية بتزويج من لا يســتطيعون مئونة الزواج ولو كان ذلك من بيت مال المسلمين لأن راحة العامل توفر خيرا كثيرا للمجتمع •

وهناك فى الاسلام حالات يعطى فيها العامل الحق فى المشاركة فى ناتج العمل مثل :

١ — عقد المضاربة وهو عقد فيه شريك برأس المال وآخر بالعمل وهو الذى يسمى بالشريك المضارب أى الذى يضرب فى الأرض ابتغاء فضل الله ويلجأ لمثل هذا العقد صاحب رأس المال المريض أو العاجز عن العمل أو النساء أو من لا يجيد فنون التجارة ، وقد عرف فى الجاهلية وخرج الرسول ﷺ فى تجارة السيدة خديجة رضى الله عنهـا على أساس هذا العقد ، كما أقر الاسلام هذا العقد .

٢ — عقد المزارعة وهو عقد يتيح لصاحب الأرض استغلال أرضه استغلالا مشروعا لأن المزارع فيه شريك بالعمل غير مسئول عن الخسارة اذا لم تنتج الأرض وهو عقد له شروطه المعروفة فى كتب الفقه وسنده ما روى عن ابن عباس من « أن رسول الله ﷺ أعطى خيبر لأهلها على النصف : نخيلها وأرضها » أى يعملوا فيها ولهم نصف ما يخرج منها .

نخلص من ذلك الى أن الاسلام يقرر :

١ — حق العامل فى أن يعمل للغير بأجر لا يقل عن حد الكفاية مـع :

(أ) مبدأ تحديد ساعات العمل والأجر الاضافى .

(ب) ربط العمل بالعبادة ورقابة الضمير « ان الله يحب من أحدكم اذا عمل عملا أن يتقنه » كما يقول الرسول عليه السلام .

(ج) تأمين مسـتقبل العامل وشيخوخته وهـذه مسئولية بيت المـال .

٢ — أن للعامل حق المشاركة فى ناتج العمل — اذا اشترك مع عنصر رأس المال أو الأرض — كما فى المضاربة أو المزارعة .

٣ — استخدام الأجر فى تملك الأشياء اذا فاض عن حاجة العامل لقول الرسول ﷺ : « من أحيا أرضا ميتة فهى له » .

٤ — لقوى السوق أن تتفاعل لتحديد أجر العامل — فيما زاد عن

حد الكفاية — .. بل ان التحديد الرئيسى لقوى السوق يظهر بجلاء عندما يشترك عنصر العمل مع غيره من عناصر الانتاج كالطبيعة أو رأس المـال كما فى عقود المضاربة والمزارعة لأن الاسلام لم يحدد حصة معينة للعامل أو العناصر الأخرى من الناتج بل ترك تحديد هذه الحصص لقـوى السوق .

لكن اذا زادت الأجور لبعض الناس زيادة كبيرة ووجدنا بعض الفئات من الناس تندفع نحو الاستهلاك غير الرشيد وبعضهم يندفع الى بعض أنواع من الاستهلاك المدمر فان الاسلام لا يترك الأمر فوضى بل يرد الناس الى الوسطية التى هى شعاره .

فيروى أن الرسول ﷺ رأى رجلا عظيم البطن فأشار باصبعه الى البطن وقال : « لو كان ما فى هذا فى غير هذا المكان لكان خيرا لك »[١٨] .

ومما كان عمر يفعله ويأمر الناس بفعله ما عبر عنه بقوله : « والله ما نعجز عن لذات الدنيا ، أن نأمر بصغار الماعز فتسمط لنا وأن نأمر بلباب القمح فيخبز لنا .. وبالزبيب فينبذ لنا فنأكل هذا ونشرب هذا .. ولكنا نريد أن نستبقى طيباتنا لأنا سمعنا الله يقول فى قوم فعلوا مثل ذلك : **« ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون »**[١٩] .

وكان يمر — وهو رئيس الدولة — بسوق اللحم فاذا رأى رجلا قد اشترى بالأمس ويريد أن يشترى اليوم زجره ورده .. وذلك عين تدخل الدولة .. هو تصرف يرمى الى تنظيم الاستهلاك أو تحديده تحقيقا للحد الأوسط ، ووقاية لقيم الباطن وملكاته .. وكان رضى الله عنه يقول : « اتقوا هذه المجازر فان لها ضراوة كضراوة الخمر » .. قال فى لسان العرب : « أراد مواضع الجزارين التى تنحر فيها الابل ، وتذبح البقرة والشاة وتباع لحمانها » وقال أيضا فى لسان العرب :

---

(١٨) رواه الطبرانى والحاكم والبيهقى .

(١٩) الأحقاف : ٢٠ .

« وانما نهاهم عنها لأنه كره لهم ادمان أكل اللحوم ، وجعل لها ضراوة كضراوة الخمر ، أى عادة كعادتها لأن من اعتاد أكل اللحوم أسرف فى النفقة ، فجعل العادة فى أكل اللحوم كالعادة فى شرب الخمر لما فى الدوام عليها من سرف النفقة والفساد » .

ومن فقهه رضى الله عنه فى ذلك ، أنه لقى فى السوق جابر بن عبد الله — رضى الله عنهما — ومعه لحم اشتراه فقال : ما هذا يا جابر ؟ قال : لحم اشتهاه أهلى فاشتريته ، فقال : أكلما اشتهيتم اشتريتم ؟ أكلما اشتهيتم اشتريتم ؟ أما يريد أحدكم أن يطوى بطنه لجاره وابن عمه ؟ .. وأين تذهب عنكم هذه الآية : « **أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها** » (٢٠) . وهو فقه يقوم على قاعدة « تنظيم الاستهلاك » ليقيم الناس على النمط الأوسط ، ويوفر لهم سلامة الأفق النفسى التهذيبى .. على أنه يزيد الى ما لم يبلغه أحد فى اقتصاد أو حكمة ، فيشير الى وجوب تخليص القدرة الشرائية من سيطرة الأهواء والرغبات الباطلة .

فقـــوله : « أكلما اشتهيتم اشتريتم » ؟ زجر عن أن تكون القدرة الشرائية فى سيطرة الشهوة ، توجهها وتبددها فى غير ضرورة أو مصلحة عامة ، أى تبدد كيان الأمة الاقتصادى فى « لا شىء » ! وهو نظر حكيم يتجاوز ظواهر الأمور — اجتماعية واقتصادية — ويعالجها من مكمن العـــلة .

وقـــوله : « أما يريد أحدكم أن يطوى بطنه لجاره وابن عمه » توجيه الى أن يرعى المرء فى تصرفه صلته الانسانية بالمجتمع .. فان المجتمع ليس الا جار وابن عم قريب أو بعيد .. ولهؤلاء احتياجاتهم فى السوق وأكثرهم قد لا يستطيع مجاراته ، فعليه أن يذكر القريب قرابته ، وأن يجعل الجوار آصرة نبيلة تدعوه أن يكف رغباته الاستهلاكية رفقا بهم فيخلى لهم الســـوق ليجدوا الأســـعار فى المستوى الذى

---

(٢٠) يراجع النص كله فى سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، ص ١١٩ .

يناسبهم .. أما أن يكون نهمة جماحة « كلما اشتهيتم اشتريتم » لا يبالى أن ينفد السلع من السوق أو يغلى أسعارها على الضعفاء ، فليس ذلك من شأن الانسان ، ولا بد من تدخل الدولة لتنظيم استهلاكه ، ولتقيمه على الحد الأوسط .. قانون المواطنة المتعاطفة .

ومما له مغزى فى قانون الاستهلاك ما رواه أبو عبيد فى الأموال — وغيره — أن علياً كرم الله وجهه قرر حداً أعلا للنفقة أربعة آلاف درهم فى السنة .. والمعروف أن أيام على رضى الله عنه كانت كلها أيام فتن وحروب وظهور الفرق المناوئة ، فلو استقر له الأمر لنفذه فى الناس ولرويت لنا صور تطبيقه ..

والمعنى الضرورى لكل ما تقدم أن « تنظيم الاستهلاك » قاعدة اسلامية وأن للدولة أن تتدخل لتنفيذها تحقيقا لكل الآثار والمزايا التى تترتب عليها .

واذا كان عمر أول من اتخذ اجراءات قانونية ايجابية لتنظيم الاستهلاك تحقيقا لما قدمنا من الأغراض ، فانا نشير الى أصالة الاسلام فى تقرير تلك القاعدة حيث نجد تحديد الاستهلاك العام عاملا من العوامل الحاسمة فى بناء اقتصاد الأمة وقوة بأسها ، اذ يغنيها عن الاستيراد وقد يتيح لها أن تصدر .. ذلك الى أنه يوفر جانبا من طاقة المصانع الملتزمة بالاستهلاك لتتجه بكل طاقاتها الى آفاق الايجاب المرتبطة بمصالح الأمة الجديدة »[٢١] .

واذا كان الاسلام يرى تدخل الدولة لتحديد الانفاق على ضرورات الحياة فما بالنا بالانفاق على الكماليات التى تنوعت وارتفعت أسعارها وغشت عدواها فى عصرنا هذا .. ؟

ان الاسلام يرى من غير الجائز الكثير من هذه الكماليات « مثل ستر جدران الحجرات أو تزيينها بستائر أو أشياء ثمينة وما الى ذلك مما نسميه اليوم « بالديكور » .. وقد روى مسلم — فى حادثة

(٢١) الثروة فى ظل الاسلام للبهى الخولى ، ص ١٨١ — ١٨٣ .

معروفة — أن عائشة رضى الله عنها زينت بيتها بستار فلما رآه عليه السلام جذبه وصار يفركه بين يديه حتى هتكه ، وقال : « يا عائشة ، ان الله تعالى لم يأمرنا فيما رزقنا أن نكسو الحجارة والطين » .

وقد روى الطبرانى أن عبد الله بن عمر دعا الى عرس ابنه سالم وكان من المدعوين أبو الدرداء ، فلما دخل وجدهم قد ستروا الجدار ببجاد أخضر[٢٢] ، فلما رآه غضب وقال : ما هذا يا ابن عمر .. ؟ أتسترون الجدر ؟ فاستحيا عبد الله بن عمر وقال فى خجل : « غلبنا عليه النساء » .. وفى رواية البخارى لهذا الحادث أن أبا الدرداء أجاب عبد الله بن عمر : « من كنت أخشى عليه — أن تغلبه النساء — فلم أكن أخشى عليك ، والله لا أطعم لك طعاما » فرجع .

وقد اختلف العلماء فى حكم هذه النفقة غير الجائزة ، فمنهم من قال انها مكروهة ، ومنهم من قال انها محرمة .. قال الصنعانى فى سبل السلام : « جزم جماعة بالتحريم لستر الجدار . وجمهور الشافعية على أنه مكروه »[٢٣] .

ومن المقطوع به أن المبالغة فى مثل هذا محرمة ، فانه اذا كان السرف فى الضرورى محرما ، فهو فى غير الضرورى أحرى بالتحريم .

أما النفقة فيما هو مقطوع بتحريمه ، فهى محرمة قطعا . . فالنفقة فى الخمر والميسر ودفع أجور العرافين من الكهنة والمنجمين وشراء آنية الذهب والفضة وما جرى هذا المجرى محرمة بالاجماع[٢٤] .

وكل هذا يهدف به الاسلام الى أن تكفل الدولة لكل فرد من رعاياها حد الكفاية من ضرورات الحياة وتحقيق التوزيع العادل لثمار الانتاج .

* * *

(٢٢) نسيج مخطط .
(٢٣) سبل السلام ، للصنعانى ، ج ٣ ، ص ٢٤٢ .
(٢٤) الثروة فى ظل الاسلام ، للبهى الخولى ، ص ١٨٤ .